أبو طالب محمد بن علي بن الخيمي
حياته وآثاره وشعره

أ. هلال بن ناجي(*)

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

هو محمد بن علي بن علي بن علي ابن المفضل بن القامغار (٥٤٩ – ٦٤٢هـ)، كنيته أبو طالب، مهذب الدين، ابن الخيمي، العبسي. فهو عربيٌّ صليبة.

ويبدو أن بعض بني عبس توطنوا الحلة المزيدية ونبغ فيهم شعراء، منهم علي بن أفلح العبسي الحلي.

مولده ونشأته ورحلته في طلب العلم:

وُلد في الحِلة المزيدية في الثامن والعشرين من شوال سنة تسع وأربعين وخمسمئة ونشأ في محلة (الجامعين) وهي محلة مازالت تُعرف بهذا الاسم حتى اليوم وذكرها في شعره وحنّ إليها فقال فيما بعد:

هواتف بالأسحار شجوًا كأنها نساءٌ تَلَبَّسْنَ الحدادَ فواجِعُ
تذكرني (بالجامعين) وبابلٍ مرابعُ عَفَّتْها الرياحُ الزعازعُ

شيوخه:

وأخذ الأدب وعلوم العربية من نحو وعروض ولغة على جلة من علماء عصره في الحلة منهم: فرسان الحلي، وانتقل إلى بغداد فكان من شيوخه عبد

(*) باحث ومحقق من العراق، وعضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق.

الله بن أحمد بن الخشاب. وتلقَّى العلم على شيوخ من مختلف المذاهب الإسلامية منهم عبد الرحمن بن محمد المعروف بالأنباري، ومحمد بن الحسين ابن الدباغ، والبندنيجي تلميذ الزاغوني، وابن العَصَّار علي بن عبد الرحيم السلمي الرقي البغدادي، وابن عبيدة الكرخي، وابن الزاهدة علي بن المبارك، وابن أيوب هبة الله بن حامد الحلي الملقب بعميد الرؤساء شيخ وقته في الحلة وغيرهم.

تنقلاته:

ثم انتقل إلى الموصل واتصل بنقيب الأشراف الحسينيين مجد الدين أبي جعفر أحمد بن زيد بن عبيد الله الحسيني ومدحه فأجزل صلته. وسافر إلى دمشق بعدها وقرأ على زيد بن الحسن الكندي تاج الدين، وكان شيخ نحاة عصره وتوثقت بينهما صلة روحية وتهاديا الأشعار، لاسيما بعد انتقال صاحبنا إلى القاهرة حيث أقام بها أعوامًا طوالاً، وانصرف إلى التأليف والإقراء وصنّف أغلب مصنفاته التي سنأتي على ذكرها.

وفاته:

وكانت وفاته بالقاهرة يوم الأربعاء العشرين من ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين وستمئة. قال ابن خلكان: ودفن من الغد بالقرافة الصغرى، وحضرت الصلاة عليه، وكان إمامًا في اللغة، راوية الشعر والأدب، رحمه الله تعالى. وكانت وفاته أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب.

شاعريته:

كان ابن الخيمي شاعرًا مُفْلِقًا، لكنه لم يجمع شعره في ديوان، ولا جمعه غيره فضاع أغلبه. وكان بَلَدِيُّهُ «جواد أحمد علوش» قد ذكر في بحثه الموسوم (محمد ابن الخيمي) المنشور في مجلة (الأستاذ)، وكانت تصدرها كلية التربية

بجامعة بغداد ج١٤ (ص١٢٢)- أنه لم يصلنا منه [من شعره] أكثر من خمسين بيتًا. أوردها في بحثه.

يقول هلال بن ناجي: وقد زدنا عليه سبعين أخرى ظفرنا بها في كتاب ابن الشعّار الموصلي المعنون «قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان المشهور بعقود الجمان في شعراء هذا الزمان» فصَنَعْنا منها مجموعًا صغيرًا سميناه «الصُّبابة من شعر ابن الخيمي» وهاهي ذي:

الصُّبابة من شعر ابن الخيمي

(١)– قال ابن الخيمي:

يا مطلبًا ليسَ لي في غيره أَرَبُ إليكَ آلَ التقصِّي وانتهى الطَلَبُ
وما طمحتُ لمرأى أو لمستمعٍ ولا لمعنى إلى علياك ينتسبُ
وما أراني أهلاً أن تواصلني حسبي علُوًّا بأني فيك مكتئبُ
لكن ينازع شوقي تارةً أدبي فأطلب الوصل لما يضعف الأدبُ
ولستُ أبرحُ في الحالين ذا قَلَقٍ نامٍ، وشوق له في أضلعي لَهَبُ
وَمدْمَعٍ كُلّما كفكفتُ أدمعَه صونًا لذكرك يَعْصِيني وينسكبُ
وا لهفَ نفسي يجديني تلهفها عونًا ووا حربا لو ينفع الحرب
يفنى الزمانُ وأشواقي مضاعفة يا للرجال، ولا وَصْلٌ ولا سَبَبُ
يا بارقًا بأعالي الرقمتين بدا (لقد حكيت ولكن فاتك الشَّنَبُ)

التخريج: مجلة (الأستاذ) – المجلد الرابع عشر ص ١٣٠– ١٣١، ١٩٦٦– ١٩٦٧. مقال محمد بن الخيمي بقلم جواد أحمد علوش – مطبعة الحكومة – بغداد – ١٩٦٧. وهي له في (كشكول) البهائي الشيخ بهاء الدين محمد العاملي: ج٣ ص٢٩٨. – طبع إيران.

(٢)– لما كان الشاعر بدمشق، أمر السلطان بحلق لحية شخص وجيه، فحلق نصفها، وحصلت فيه شفاعة، فعفا عنه في الباقي، فنظم الشاعر هذه الأبيات ولم يصرح باسمه، بل رمزه وستره. والأبيات هي:

زرتُ ابنَ آدمَ لما قيل قد حلقوا جميع لحيته من بعدما ضُربا
فلم أرَ النصفَ محلوقًا فعدتُ له مهنئًا بالذي منها له وُهبا
فقام ينشدني والدمعُ يخنقُهُ بيتين ما نُظما مَيْنًا ولا كَذِبا
إذا أتتك لَحْلِقِ الذقن طائفةٌ «فاخلَعْ ثيابك منها مُمْعِنًا هَرَبا»
«وإن أتوك وقالوا: إنّها نَصَفٌ فإنّ أطيبَ نِصْفيها الذي ذَهَبا»

التخريج: وفيات الأعيان ج٦ ص ٥٦. وشطر الرابع والبيت الخامس مضمنة من الحماسية رقم ٨٧٠ في شرح المرزوقي لحماسة أبي تمام ورواية عجز الخامس: فإن أمثل نصفيها... والمقطعة في الوافي بالوفيات ج٤ ص١٨٣ وفي فوات الوفيات ٣/ ٤٤٢.

(٣)– قال ابن النجار: وسمعت ابن الخيمي يقول: لما توفي أبو عثمان الفقيه الشارعي بالقاهرة، لقيني بعض الأشعرية فذكره بما يذكر الأشعرية الحنابلة، ونهاني عن الصلاة عليه، فإني تلك الليلة نائم، إذ رأيت اثنين فأنشداني:

صلِّ على المسلمين جمعًا واغتنم الوقتَ قبل فَوْتِهْ
من ذا الذي ليس فيه شيءٌ يقوله الناس بعد موتِهْ

التخريج: مجلة الأستاذ – المجلد ١٤ ص ١٣١ وهما له في بغية الوعاة ج١ ص ١٨٥.

(٤)– وقال يهجو الأسعد بن مماتي المصري، وكان نصرانيًا فأسلم وتولى نظر الدواوين:

وحديثُ الإسلام واهي الحديثِ باسمُ الثغر عن ضميرِ خبيث
لو رأى بعضَ شعره سيبويهٌ زادَهُ في علامة التأنيث

التخريج: مجلة الأستاذ – المجلد ١٤ ص ١٢٩.

(٥)– وقال:

لا ترجُه لصالحٍ يأتي ولكن أرْجِهِ

التخريج: بدائع البدائه ص ١٣٣.

(٦)– وقال:

أأصنامَ هذا الجيل طرًّا أكلُّكم «يعوقُ» أما فيكم «يغوث» ولا «ودُّ»
لقد طال ترادي إليكم فلم أجدْ سوى ربّ شأنٍ في الغنى شأنه الردُّ
ودعوى كرامٍ يستحيل قبولها ويُقبل إذ حدّ الحسام لها حَدُّ

التخريج: الوافي بالوفيات ج٤ ص١٨١.

والأول والثاني له في فوات الوفيات ج٣ ص ٤٤١.

(٧)– وكتب إلى النقيب مجد الدين أبي جعفر أحمد بن زيد بن عبيد الله الحسيني الموصلي مهنئًا بالشهر:

ليَهْنَ بك الشهرُ الجديدُ فإنّما بقاؤك في العزِّ الهناءُ المجدَّدُ
وحَسْبُكَ مَدْحًا أن تبيتَ وحيدرٌ أبوك وأن تُضْحي وجَدُّكَ أحمدُ
وأن تغتدي والعالَمونَ مُلوكُهم وأحرارُهم رَغْمًا لبيتكَ أَعْبُدُ
ولستَ بمحتاجٍ إلى المدح بعد أن أتَتْ لكُمُ الآياتُ بالفضل تشهدُ
ولكنَّما يدعو الغرائزَ فَخْرُكُمْ إلى القول منّا قُربةً فَنُقَصِّدُ
ونعلمُ أنَّ المدح ليسَ بزائدٍ مناقِبكُمْ لكنَّنا نَتَودَّدُ

ونرعـــى عهـــودًا للنـــبيِّ أضـــاعها طوائفُ في بُغضِ الوصِيِّ وألحدوا
فيا ابنَ عبيد الله يا من بحبّهم نفوزُ غدًا يوم المعادِ ونَسْعَدُ
ويا أيها المجْدُ الذي باتَ مُطْلَقًا عطاهُ، وشُكْرُ الناس فيه مُقَيَّدُ
و يا مَنْ له في كُلِّ أنمُلَةٍ ندًى يفيضُ ونارٌ في الوغى تتوقَّدُ
ألستَ من القوم الذين بشرعهم تُحَلُّ أمورُ العالمين وتُعقدُ؟
فَعِشْ ما أقام الفرقدان وما بكى غمامٌ وما ناحَ الحمامُ المغَرِّدُ

التخريج: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان – المجلد الثاني ص ١٦١- ١٦٢.

(٨)– وقال في مدح النقيب مجد الدين أبي جعفر أحمد بن زيد بن عبيد الله الحسيني الموصلي:

زادكَ اللهُ أيها المجدُ مجدا فلقد رُحْتَ أغزرَ الناس رفدا
وأجلّ الورى أبًا وعُمومًا وخؤولاً زُهْرًا وأُمًّا وجَدّا
مَعْشَرٌ ما نظمتُ فيهم قريضًا من مدِيحٍ إلاّ تضوّعَ رَنْدا
لا ولا فُهْتُ باسمهم في أجاج من شرابٍ إلاّ تبدّلَ شَهْدا
يا أبا جعفرٍ أَجِرْ ذا ولاءٍ لكُمُ نازحًا عن الأهل فردا
حلّ في الموصل الفسيحة حتى خالها للهموم والضيق لحدا
وهو لا يرتجي سواكم لدنيا هُ ولا للمعاد سُؤلاً وعَضْدا
ونقّشت تلك الأحاديثُ عنّي عاد عندي بيضُ الأمانيّ رُنْدا
وجيوشُ الشتاء قد بادرتني يتوعدنني خواءً وبردا
وعطاياك لم تَزَلْ قَطُّ نقدًا وعطايا الأيام وَعْدًا وفَقْدا

فَتَحنَّنْ عليَّ يا ابن عبيد الـ لّه يا أوسع البرية رفدا
إنني عبدكُم ومثلك في السا دة ما إذ يبيع مثلي عَبْدا
فاغتنم شكري المريع الذي ما زال وقفًا عليك قُرْبًا وبُعْدا
مثلما بات ناصبُ اللعنِ والثل ـبِ لمن ما رعوا لجدِّك عهدا

التخريج: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان – المجلد الثاني ص ١٦١.

(٩)– وكان قد خرج إلى الأهرام للتنزه ومعه ابن الساعاتي والجمال بن التاج البغدادي والأوحد الواسطي. وحدث أن كبت بغلة أبي الحسن علي بن نظيف كاتب الملك المعز ثم وثبت ورفعت يديها، فتعاطى الحاضرون القول في ذلك، فقال ابن الخيمي:

أقسمت بغلة الرئيس المفدّى حين حطّت لعجزها عنه صدرا
إنّما رفّعَتْ يديها قنوتًا بعد أن قبلت ثرى الأرض عشرا
إذْ غدتْ من حجاه، حاملةً طو دًا ومن جود كفّه العذب بحرا

التخريج: بدائع البدائه ص ٢٦٤.

(١٠)– وقال وقد رأى سبحة سوداء، فتأملها مليًّا فأوحت له هذين البيتين:

وسبحة مسوّدةٍ لونُها يحكي سوادَ القلبِ والناظرِ
كأنني وقتَ اشتغالي بها أعدّ أيامكَ يا هاجري

التخريج: مجلة الأستاذ ج١٤ ص ١٢٤ وهما له في كشكول البهائي العاملي ج٣ ص ٣٣٥.

(١١)– وكتب إلى صديقه الشاعر الأديب جمال الدين يحيى بن عيسى المعروف بابن مطروح مهنئًا حين وُلِّي على أموال المواريث:

لمهيار مصرٍ سُجِّل الفضل عندما وأبطلت الدعوى لمهيار فارس
فبينهما في النظم والنثر إن هُما سبرتَهُما ما بين ماشٍ وفارس

فتىً نظر السلطانُ فيه مخايل الـ ـدراية والديوان نظرة فارس
فَولاّهُ أموالَ المواريث حاميًا به سربَها من كلّ أجرأ فارس
كأنّ (ابن مطروح) أقام ابن أحمد وأحياهُ من بعد البلى وابن فارس
وكلّ أميرٍ في البلاغة عنده غلامٌ فلا تبعث سواهُ بفارس

التخريج: مجلة الأستاذ ج١٤ ص ١٢٦– ١٢٧.

(١٢)– وقال:

قالت وقد رأت المشيب: تجافَ عن مسِّي بشيبك فالمشيب أخو البَرَصْ
إنّي لأكرهُهُ إذا عاينتُه يَقْظَى وألقى دون رؤيته الغُصَصْ
وأظنَّه كَفني وقُطْنَ لفائفي حملَتْهُ غاسلتي وجاءت في قَفَصْ

التخريج: الوافي بالوفيات ج٤ ص ١٨٢.

(١٣)– وقال يمدح نقيب الأشراف في الموصل أحمد بن زيد بن عبيد الله الحسيني:

أفي كلّ رَبْعٍ دمعُ عينيك هامعُ وفي كُلِّ جَمْعٍ سرُّ قلبكَ ذائعُ
وفي أيِّما أرضٍ حللتَ مُعَزِّيًا أجدَّ لك الشوقَ الحمامُ السواجِعُ
هواتفُ بالأسحار شجوًا كأنَّها نساءٌ تَلَبَّسْنَ الحدادَ فواجِعُ
تذكرني بالجامعين وبابلٍ مرابعُ عَفَّتْها الرياحُ الزعازعُ
فأسعِدُها بالنوح نوحًا وتارةً تتابعُني في شدوها وأتابِعُ
أنا العِلْقُ[1] إن عيَّ المقال فخاطبٌ أنا السيفُ إن فُلَّتْ ظُباهُ فَقاطِعُ
وإنّي إذا ما نابني الهمُّ والأسى وبتُّ تُجافي جانبيَّ المضاجِعُ

(1) في الأصل: أنا الفلق.

جعلتُ وسادي كُوْرَ عنساءَ حَبْرَةٍ جمالية لم يَعْلُها الدهرَ فارعُ
محففة نحو السُرى بمناسمٍ صلاب تشكّى وقعهنَّ البلاقِعُ
ويُثلثُنا قاض وقورٌ وإنّه جَهولٌ إذا ما استعقلته الوقائع
إذا كَذَبَتْ صُحفُ الخؤولة أظْهرتْ معاطِفَهُ حكمًا به العَمُّ قانعُ
صفا رونقًا حتى كأنّ لُموعَهُ تبسُّمُ مجد الدين حين يُقارع
أبي جعفرٍ نجلِ الميامين أحمدٍ فتىً حمدُهُ في البَرِّ والبحر شائعُ
سليلُ رسول الله وابن وَصِيِّه عليٍّ الذي تثنى عليه الأصابعُ
إمامٌ أبانَ الدينَ بعدَ كُمونِه وأخبَر بعد الكون ما الله صانعُ
فهل بالغٌ مدحُ امرئٍ كُلَّ قومه له مِنَنٌ ما تنقضي وصنائعُ؟
مغاور إن شُنَّتْ من الدهر غارةٌ مغاوث إن لم يعد في الأرض ضارعُ
تظلّ سراحين الفلا لسيوفهم مُصَلِّيَةً حيث الرماحُ صَوامِعُ
فما ساجدٌ بالطعن بات وفوقَهُ من الطُّلْسِ إلاّ أسحم اللون راكعُ
مُجمِّعُ فَلِّ الحمد والحمد شاردٌ وهازمُ جيش اللؤم واللؤم جامعُ
حسيبٌ أديبٌ قادرٌ متعطِّف سخيٌّ أبيٌّ مالكٌ متواضِعُ
أعَزُّ مليكٍ للورى وَخَدَتْ بهِ علنداةُ أسْرِهَيَّجتها الجلافعُ
وأكرمُ محمولٍ على متن سابحٍ بقبهلةٍ لُطخٍ من الفجر لامعُ
تزاحمني فيه القوافي كأنّها حوائمُ حُمْسٌ بالفُرات تدافَعُ
إذا ما انتضى في حندس الخطب عَزْمَهُ تَسَرَّى ووجهُ النصر أبلجُ ناصعُ
وإن لبست أقلامُه الطِّرْسَ ساخطًا أُبيحتْ حَلالٌ واستقيدت صعاصع
وإنْ جادَ إنعامًا أتتك كتابةً وفي كلّ سطرٍ جعفرٌ مُتدافعُ

غَدَتْ سيرةُ الحدباء في الأرض صورةً بعدلكمُ تُحدى إليها المطامعُ
إذا تُلِيَتْ بين اللثام تحتموا وأنشد كُلٌّ وهو في البذل راتعُ
سَما بيَ أوسٌ في السّماح وحاتمٌ وزيدُ القنا والأشرفان ورافعُ
فأصْغِ إليَّ السمعَ يا مجدُ إنني لأجْدَرُ من تُصغى إليه المسامعُ
فما المدحُ إلاّ ما أنا اليومَ مُورِدٌ وما الطَّوْلُ إلا ما غدا أنتَ جامعُ
ولا الفضلُ إلاّ فضلُ ما نطقتْ به سوابقُ كُتْبٍ قَبْلَهُ وشرائعُ
مناقبُ غُرٌّ ما دجا شِرْكُ فَتْرَةٍ فأظلمَ إلاّ وهي زُهْرٌ طوالعُ

التخريج:قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان ج٢ص١٦٢-١٦٣.

(١٤)– وقال:

جُنِنْتُ فَعَوِّذْني بكتبك إنّ لي شياطين شوقٍ لا تفارق مضجعي
إذا استرقت أسرارَ وجدي تمرّدًا بعثتُ عليها في الدجى شُهْبَ أدمعي

التخريج: فوات الوفيات ج٣ ص ٤٤١ والوافي بالوفيات ٤.

(١٥)– وقال يرثي الحافظ علي بن المفضل المقدسي:

أبكي وحُقَّ لناظري غَرَقُهْ إنَّ الحديثَ توعّرَتْ طُرُقُهْ
سَفَتِ الرياحُ على معالمِهِ فَعَفَتْ وأصبحَ مُظْلِمًا أُفُقُهْ
وغَدَتْ معطّلةً محابِرُهُ بعد النَّبيهِ وفُرِّقَتْ فِرَقُهْ
ونَسُوا روايتَه وهل غُصُنٌ يَذْوى فيلبثُ بعده وَرَقُهْ

التخريج: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُحاة ج١ ص ١٨٤.

(١٦)– وقال مادحًا:

ولكنه إذْ عادَ مصر تَعَرَّبَتْ معاشرُ كانت قبل مقدمه عُجما

فأصبح من قد كان مرجوّه الغنى وبغيتَه من بعد لو رُزِق الفهما
أمِنْتُ الظما لما حللتُ ببابهِ وليس يخافُ الظَّمْءَ من جاور السما
رعى ليَ عرفان الشآم ولم يزلْ ملوك الورى يرعون من عرفوا قدما
مآثر ترويها العلى أفضليّة تنوبُ منابَ الراح في طردها الهمّا

التخريج: مخطوطة نزهة الملك في الكلاب والمكلبين لابن الخيمي مصورة في خزانتي.

(١٧)– وقال:

كمْ من مُريقٍ يومَ الفراق دَمَهْ وبائحٍ سِرَّهُ الذي كَتَمَهْ؟
وكمْ حبيبٍ سَرَتْ ركائِبُهُ على مُحِبٍّ مضى فما رَحِمَهْ
دعا على ظالميه محتسبًا وما درى أنَّه الذي ظَلَمَهْ
ذو طلعةٍ كالصباح مُشْرقةٍ من تحت فَرْعٍ كأنَّه العَتَمَهْ
ومُقْلَةٍ بابليَّةٍ شَهِدَتْ بصدقِ هاروت في الذي اجترَمَهْ
ظَبْيٌ نَسِيتُ التوحيدَ من كَلَفي به وأمسيتُ عابدًا صَنَمَهْ
سألتُه قُبلةً فأورَدَني نارَ صُدودٍ بالهجرِ مُضْطَرِمَهْ
فقلتُ: يا مالكي أتُحْرِقُ مَنْ باتَ قسيم النيران مُعْتَصِمَهْ

التخريج: قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان لابن الشعّار الموصلي ج٢ ص ١٦٠– ١٦١.

(١٨)– وقال يرثي ثغر دمياط حين استباحَهُ الصليبيون:

ولقد بكيتُ لثغر دمياطٍ دمًا ووجَدْتُ وَجْدَ الفاقدِ المحزونِ
أرضَ العِبادة والزهادة والتُّقى وتلاوةِ القرآنِ والتأذينِ

وُبِئَتْ وأوبأَها العدوّ فأهلُها شهداءُ بين الطَّعْنِ والطاعونِ

التخريج: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة ج١ ص ١٨٤.

(١٩)– كتب إليه شيخه زيد بن الحسن الكندي تاج الدين من دمشق متشوقًا من جملة أبيات:

نحن بالشام رَهْنُ شوقٍ إليكم هل لديكم بمصر شوقٌ إلينا

فأجابه ابن الخيمي بأبيات من جملتها:

أيها الساكنون بالشام من كِدْ ـدَةَ إنَّا بِعَهْدكم ما وَفَيْنا

لو قضينا حقَّ المودة كُنّا نَحْبَنا بَعْدَ بُعْدِكم قد قضينا

التخريج: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج٢ ص ٣٤١.

(٢٠)– قال ابن الخيمي: رأيتُ في النوم المعظم شمس الدولة [توران شاه بن أيوب أخا صلاح الدين الأيوبي] وقد مدحته وهو في القبر ميت، فَلَفَّ كفنه ورماه لي وأنشد:

لا تستقلنَّ معروفًا سمحتُ به مَيْتًا، وأمسيتُ عنه عاريًا بدني

ولا تظنَّ جودي شابَهُ بُخْلٌ من بعد بذلي بملك الشام واليمن

إني خرجتُ من الدنيا وليس معي من كُلَّ ما ملكت كفيّ سوى كفني

التخريج: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المقريزي – ج٢ ص ٣٨ ومجلة الأستاذ ١٤/ ١٣٢.

(٢١)– ومن شعره أبياته المشهورة وقد كتبها إلى ولده وقد عُصر:

عصروكَ أمثال اللصو ص، ومكّنوا منكَ الإهانةْ

فإذا رجعتَ فَخُنْهمُ إنّ السلامة في الخيانةْ

وافْعل كفعلِ بني سنا ءِ الملك في مال الخزانةْ

ويقال إن هذه الأبيات لما شاعت أُمسك بنو سناء الملك وصودروا بسبب هذه الأبيات.

التخريج: الوافي بالوفيات ج٤ ص ١٨٣ وفوات الوفيات ج٣ ص ٤٤١.

مصنفاته:

١– حرف في علم القرآن، هكذا ذكره الصفدي في الوافي وسمّاه السيوطي في البغية، كتاب حروف القرآن، وهو مفقود.

٢– أمثال القرآن وهو مفقود.

٣–كتاب نزهة الملك في الكلاب والمكلبين، وصلتنا منه مخْطوطة في الظاهرية.

٤– استواء الحاكم والقاضي، ذكره الصفدي والسيوطي وهو مفقود.

٥– الردّ على الوزير المغربي، ذكره الصفدي والسيوطي وهو مفقود.

٦–كتاب المؤانسة في المقايسة، ذكره السيوطي بهذا الاسم وسمّاه الصفدي «المقايسة» وهو مفقود.

٧– لزوم الخمس، ذكره الصفدي والسيوطي وهو مفقود.

٨– الملخص الديواني في الأدب والحساب، ذكره الصفدي، وذكره السيوطي بعنوان المخلص الديواني في علم الأدب والحساب، وهو مفقود.

٩–كتاب المقصورة. ذكره الصفدي والسيوطي وهو مفقود.

١٠– المطاول في الردّ على المعري في مواضع سها فيها ستة. ذكره الصفدي، وذكره السيوطي وأسقط من عنوانه لفظة (ستة) وهو مفقود.

١١– إسطرلاب الشعر – ذكره الصفدي والسيوطي وهو مفقود.

١٢– كتاب شرح التحيات: ذكره الصفدي بعنوان شرح التحيات وذكره السيوطي بعنوان: «كتاب شرح التحيات لله». وهو رسالة نشرها محققة الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد سنة ١٩٨١ ببيروت ضمن كتاب ثلاث رسائل في اللغة، واعتمد في تحقيقه هذه الرسالة على مخطوطتين الأولى: محفوظة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض بخط العلامة السيوطي نسخها سنة ٨٦٦ هـ.

والثانية: في خزانة الأستاذ صلاح الدين المنجد ضمن مجموع فيه رسائل لغوية كتبها عبد القادر بن أحمد العمري الصالحي الناسخ. فرغ من نسخها في ذي الحجة سنة ٩٢٣ هـ.

وفي خزانتي مخطوطة نفيسة نسخها ناسخها أحمد بن محمد بن إبراهيم القرشي الشافعي في ذي الحجة عام ٧٠٩ هـ. أقدم من المخْطوطتين اللتين اعتمدهما المنجّد – مدّ الله في عمره –.

١٣– الأربعين والأساميّات: ذكره الصفدي والسيوطي وهو مفقود.

١٤– كتاب الديوان المعمور في مدح الصاحب: وقد وهم الدكتور جواد أحمد علوش في بحثه المنشور في مجلة الأستاذ إذ قال: وهذا الكتاب مجموعة أدبية تضم ما قيل في مدح الصاحب وهو إسماعيل بن عباد بن العباس وزير البويهيين المتوفى سنة ٣٨٥ هـ. والصواب أن المراد بالصاحب، «الصاحب بن شكر»، وزير الملك العادل الأيوبي ملك مصر والشام والجزيرة، ثم وزير ابنه الكامل. قال أبو شامة: كان خليقًا بالوزارة لم يتولّها بعده مثله. وكان يبالغ في إقامة النواميس مع التواضع للعلماء والصدقات والصلات. وقد تمكَّن من الملك العادل تمكنًا لا مزيد عليه. ثم غضب عليه ونفاه. فلما مات عاد ابن شكر إلى مصر ووزر للكامل ثم

عمي في الآخر وتوفي في شعبان سنة ٦٢٢هـ[٢]. والكتاب ذكره الصفدي والسيوطي وهو مفقود.

١٥- الجمع بين الأخوات والمحافظة عليهن وهن مسيئات. ذكره الصفدي والسيوطي وسماه السيوطي «الجمع بين الأخوات والحضّ على المحافظة بين المسبيات». وقد لحقه تحريف واضح. وهو مفقود.

١٦- رسالة من أهل الإخلاص والمودة إلى الناكثين من أهل الغدر والردة ذكرها الصفدي وتصحف العنوان عند السيوطي فصار: من أهل العذر... وهي مفقودة.

١٧- كتاب صفات القبلة مجملة ومفصلة. ذكرها الصفدي والسيوطي وهي مفقودة.

١٨- كتاب قد، ذكره السيوطي. وهو مفقود.

١٩- كتاب يحيى، ذكره السيوطي. وهو مفقود.

٢٠- جُهينةُ الأخبار وجُنينةُ الأذكار، لخصها من «أنيس المسافر وجليس الحاضر..» ذكره إسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين ج٢ العمود ١٢١ – ١٢٢.

ولم يذكر أحد المترجمين له أنه صنع لنفسه ديوانًا رغم شاعريته الرفيعة. وهذا سببٌ من أسباب ضياع شعره.

ويبدو من إنعام النظر في عناوين مؤلفاته أنها دارت في موضوعات دينية وفقهيةٍ وأصولية ولغوية وعروضية وأدبية. ومما يبرز مكانته الرفيعة في التصنيف

(2) من استدراكات الدكتور مصطفى جواد على بحث جواد أحمد علوش – بمجلة الأستاذ ج١٥ ص ٣٨ – ٣٩.

تصدّيه للردّ على المعري، والرد على الوزير المغربي وهما علمان من أعلام عصرهما وما بعده، ومن المحزن أن يضيع مثل هذين الكتابين. وقد أسبغ عليه مؤرخوه من النعوت ما هو جدير بها.

قال المنذري صاحب التكملة عنه: شاعر مُفْلق وأديب بارع. ووصفه ابن النجار فقال: كان نحويًا فاضلاً كامل المعرفة بالأدب. ونعته ابن خلكان بأنه: كان إمامًا في اللغة، راوية للشعر والأدب. وكان في نظر الصفدي: الأديب الكامل.

التعريف بمخطوطة ((نُزهة المَلِكِ في وصف الكلب والمكلِّبين)):

المخطوطة فريدة في الدنيا تحتفظ بها المكتبة الظاهرية بدمشق، وبذيلها خطّ مصنّفها أبي طالب محمد بن الخيمي اللغوي في موضعين:

الأول: في إجازته لمحمد بن مرتفع بن جبريل وهذا نصّها:

قرأتُ جميع هذا الكتاب المسمّى بنزهة الملك على مؤلفه المولى مهذب الدين أبي طالب محمد بن علي بن علي اللغوي – أيّده الله – مقابلاً بأصله وهو بيده، وسألته الإذن في روايته عنه فأذِنَ، وسألته إجازة عامة في جميع ما ألّفه من نظم ونثر وما تصحّ الرواية له عنه فأذن، وتلفظ لي بذلك منعمًا، في العشرين من ذي القعدة سنة أربعين وستمئة. وكتبه الفقير إلى ربه الغني، محمد بن مرتفع بن جبريل في تاريخه والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. وتحتها العبارة التالية بخط ابن الخيمي.

صحيحٌ ما ذكره من قراءته واستجازته وكتب ابن الخيمي في تاريخه.

وتحتها ختم غير مقروء.

والثاني: إجازة أخرى للفقيه جمال الدين أيّده الله المستجيز أحق (..)

بأن يجيز، لما أعلمه من فهمه وقراءته ونسكه، وقد أذنت له أن يروي عني جميع ما صحّ عنده أنه تأليفي من جميع الفنون الأدبية واللغوية على الشروط المعتبرة، وأذنت لولده نفعهما الله بالعلم و.... بالحلم.

وكتب ابن الخيمي محمد بن العليين الثلاثة في رابع عشر شوال الذي من سنة تسع وثلاثين وستمئة بالقاهرة المعِزِّيَّة، ومولده سنة تسع وأربعين وخمسمئة. حامدًا الله ومصليًا على سيدنا محمد النبي الأميّ وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين. وصححه (وبعدها) توقيع.

ووجدته يشير في مواضع عديدة من المخطوطة بما نصه: بلغ الفقيه جمال الدين إلى هنا أسعده الله. وهذا يؤكد نفاسة المخطوطة وأنها قُرئت على مصنفها.

وعِدّة المخطوطة (١٥١) صفحة. لكنّ اللافت للنظر أنها كتبت بخطين مختلفين. فالصحائف (١– ١٢) وفيها صفحة العنوان كُتبت بخط رديء وكأنَّ أوراقًا انتُزِعت من المخطوطة وأُبدلت أو نسخت من شخص آخر وبدءًا من الصفحة (١٣) وحتى نهاية الكتاب، كُتبت بخط قديم في غاية الحسن والجودة، مضبوط بالشكل. ولم يصرِّح الناسخ باسمه وختم المخطوطة بالعبارة التالية (تمّ الكتاب بأسره والحمد لله وحده وصلّى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وأصحابه المنْتَجَبِين وسلم تسليما).

* * *

وفي ذكر الدافع إلى تأليف الكتاب، ذكر المصنف أن شيخه علي بن عبد الرحيم بن الحسين العصّار السلمي البغدادي الرقي روى له ما جرى بين أبي العلاء المعري وأحدهم في مجلس الشريف المرتضى ببغداد حين وَطِئ أبو

العلاء قدم أحدهم فشتمه الموطوء بقوله: من هذا الكلب الذي يطأ الناس؟ فقال أبو العلاء: الكلب من لا يعرف للكلب نيِّفًا وسبعين اسمًا. فقال الموطوء: فأنت كلب، لأنك لا تفرق بين الاسم والصفة، وإنما يكون للشيء الواحد الاسم الواحد، وما زاد فهو صفة. فقال أبو العلاء: فما تقول في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فاحْرَنْجَمَ الموطوء.

يقول ابن الخيمي: منذ حدَّثه شيخه بهذا الحديث مازال يتتبع الأمر لعله يجد أحدًا من أهل العلم باللغة عُني بجمع ذلك، فلم يجد منهم من ألّف في الكلب نفسه كتابًا مفردًا يشتمل على هذه العدة، فأقدم وألّف في هذا الكتاب ما يزيد على نيف وسبعين اسمًا وصفة من أسماء الكلاب وصفاتها مما وقع إليه من كلام العرب وتضمن الكتاب العزيز من ذكره، ووسمه بـ «نزهة المِلكْ».

وشَرَحَ المقصود بلفظة المكلبين، أي الذين يُعَلِّمون الكلابَ الصيدَ.

والكتاب بمجموعه كتاب لغة وشعر وفقه. فهو مليء بألفاظ مشروحة، وغاص بالشواهد الشعرية، وفيه شعر كثير نُسب لأصحابه ومنهم: زياد الأعجم وطفيل الغنوي والجعدي ودكين بن رجاء وجندل بن الراعي النميري والكميت والنابغة والبعيث وسعد بن زيد مناة وأبو زبيد ورؤبة والعباس بن مرداس والحصين بن حمام والأعشى ولبيد وامرؤ القيس وذو الرمة وعنترة وزهير والراعي وأبو دؤاد وسويد الحارثي والمرار الأسدي وابن ميادة وابن أجمر والعجاج والقطامي وأبو كبير والمجنون وابن عبدل وأبو النجم العجلي والمخبّل والشماخ وحسان بن ثابت ودراج بن زرعة وسويد بن أبي كاهل وابن مقبل وطفيل والفقعسي والأحوص والأخطل وساعدة بن جؤية الهذلي والفرزدق وأبو

وجرة والبعيث وحُميد وأبو الزحف الكلبي وطرفة وبشر والوليد بن عقبة وأبو محرز ووضاح اليمن والطرماح ومرة بن محكان وغيرهم.

وهناك عشرات الأبيات وأشطار الأرجاز لم تُنسب إلى شاعر بعينه. وغصّ الكتاب بالآيات القرآنية والأحاديث والأمثال، وهو كتاب لغة يدل على سعة علم مصنفه في ميدان اللغة. لم يقسمه فصولاً، بل استرسل فيه استرسالاً وختمه بقوله: قال المؤلِّف: إن الأسماء ما دلّت على المسميات، والصفات ما عَكَرَت عليها بعد التسمية بنفي أو إثبات. وكلّ شيء واحد فاسمٌ واحدٌ يدل عليه، فإن اقترن به معنى، زيد له من الوصف اسم يستدرك عليه، ولهذا قيل للصفات أسماء، إلاّ الاسم المشتق كالعباس والضحاك فإنه يدل بنفسه على المسمّى وعلى المعنى فيه جميعًا. وأولى الأسماء ما كان الأخصّ الذي لا يشركه فيه غيره لِيَنْمازَ من غيره به)).

من نتائج البحث:

١- نَفْيُ العجمة عن الشاعر، فقد ورد في سلسلة أجداده اسم جده (القامغار) وهو اسم غير عربي، مما يثير الشبهة في نسبه. وقد نفينا هذه الشبهة بإثبات أنه عربي صَلِيبةً من قبيلة (عيسى) كما ذكر ابن الشعار في كتابه ((قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)).

٢- أثبت عدم صحة ما ذهب إليه الأستاذ جواد أحمد علوش – من أساتذة الأدب في كلية التربية ببغداد – من أنه لم يصلنا من شعر ابن الخيمي أكثر من خمسين بيتًا (مجلة الأستاذ ١٤/ ١٢٢) وأضفت سبعين بيتًا.

٣- صحَّحتُ أوهامًا وردت في ترجمة ابن الخيمي عند السيوطي في البغية ١/ ١٨٤ أثناء ذكره لشيوخه، وأظنها من أوهام النساخ ومنها:

ابن القصّار صوابه: ابن العصّار. فقد ذكره ابن الخيمي في مقدمته لكتابه (نزهة الملك في وصف الكلب والمكلبين بالعبارة التالية: حدثني به شيخي الشيخ المهذب أبو الحسين علي بن عبد الرحيم بن الحسين العصّار السلمي اللغوي البغدادي الرقي رحمه الله.

أبو الحسن بن الزاهد: صوابه: ابن الزاهدة، واسمه علي بن المبارك بن علي ابن المبارك بن عبد الباقي المعروف بابن الزاهدة النحوي صاحب ابن الخشاب، المتوفى سنة ٥٩٢هـ (معجم الأدباء ٢/ ١٢٥ طبعة مرجليوث. والزاهدة أمه).

ابن عبيد: صوابه ابن عبيدة واسمه الحسن بن علي بن بركة بن عبيدة الكرخي (معجم الأدباء ج٣/ ١٥٥ ط. مرجليوث).

وحذفت من شيوخه ابن حميدة المتوفى سنة ٥٥٠هـ وابن الزاغوني (ت٥٥٢هـ) إذ لا يمكن أن يأخذ ابن الخيمي عنهما وعمره سنتان أو ثلاثة، وقد ذكرهما المنجد في مقدمة شرح لفظة التحيات، باعتبارهما من شيوخه وهو خطأ.

٤- وقفت - ولأول مرة - على مخطوطة «نزهة الملك في الكلب والمكلبين» فعرفت بها تفصيلاً، ولم يكن أحد من مؤرخي ابن الخيمي المعاصرين قد وقف عليها، فجواد علوش في بحثه أشار إليها (ص ١٢١) اكتفى بالقول: كتاب الكلاب والمكلبين وهو في وصف كلاب الصيد والصيد بها وما إلى ذلك. توجد من نسخة خطية عليها خط المؤلف في الخزانة الظاهرية بدمشق، نقل هذا عن دائرة معارف البستاني ج٣ ص٤٩.

كما لم يعرف الأستاذ جواد شيئًا عن رسالة (شرح التحيات لله) وقال: لعله في الأدعية والأوراد. وظن الكتاب مفقودًا. فالأستاذ جواد نشر مقالته

سنة ١٩٦٧، والمنّجد حقق الرسالة سنة ١٩٨١، لذلك لم يكن قد سمع بها، كما لم يحاول الوقوف على مخطوطة الظاهرية التي أشار إليها البستاني وأشار إليها أيضًا عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين ١١/ ٢٩ والدكتور الجليل الأستاذ صلاح الدين المنجد اكتفى بذكر كتاب «وصف الكلب والمكلبين» وسمّاه: كتاب الكلاب المكلبين وأحال على معجم المؤلفين ولم يشر إلى نُسْخة الظاهرية المخطوطة.

أما أنا فقد وقفت على مخطوطة الكتاب الفريدة وسعيتُ للحصول على مصورة منها، ودرستها وفصلت القول في التعريف بها ووصف محتوياتها. فهذه نتيجة من أبرز نتائج هذا البحث، فيها رحلة وراء المخطوط وسعي جادّ لتصويره، والفضل في هذا عائد لسدنة دار الكتب بالشام.

المصادر والمراجع

١- الأستاذ: مجلة كانت تصدرها كلية التربية بجامعة بغداد – المجلد الرابع عشر ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧م. بحث عنوانه (محمد ابن الخيمي): جواد أحمد علوش، ص١٠٧- ١٣٤.

٢- الأستاذ: مجلة تصدرها كلية التربية بجامعة بغداد – المجلد الخامس عشر بغداد – ١٩٦٩. بحث عنوانه (استدراكات أدبية تاريخية بقلم مصطفى جواد ص ١٥- ٤١).

٣- بدائع البدائه: صنّفه علي بن ظافر الأزدي – حققه محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة – ١٩٧٠.

٤- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة – السيوطي — حققه محمد أبو الفضل إبراهيم – القاهرة ١٣٨٤ هـ= ١٩٦٤م.

٥- دائرة المعارف بإدارة فؤاد أفرام البستاني – المجلد الثالث ص٤٩ – بيروت ١٩٦٠.

٦- شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي: حققه أحمد أمين وعبد السلام هارون – القسم الرابع – القاهرة ١٩٥٣.

٧- شرح لفظة التحيات لأبي طالب محمد بن علي ابن الخيمي: بتحقيق صلاح الدين المنجد، ضمن كتابه (ثلاث رسائل في اللغة). دار الكتاب الجديد – بيروت ١٩٨١.
٨- فوات الوفيات والذيل عليها: تأليف محمد بن شاكر الكتبي – حققه إحسان عباس دار الثقافة – بيروت – ١٩٧٤.
٩- قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان المشهور بـ(عقود الجمان في شعراء هذا الزمان). صنفه كمال الدين أبو البركات المبارك ابن الشعار الموصلي، حققه كامل سلمان الجبوري – بيروت – ٢٠٠٥م = ١٤٢٦ هـ.
١٠- الكشكول: بهاء الدين محمد العاملي – ج٣ ص ٢٩٨- إيران.
١١- معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية – الجزء الحادي عشر – عمر رضا كحالة دمشق ١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠م.
١٢- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: أحمد بن علي المقريزي – صورتها بالأوفسيت مكتبة المثنى ببغداد.
١٣- نزهة الملك في الكلاب والمكلبين – مصورة في خزانة كاتب البحث أصلها المخطوط محفوظ بخزانة الظاهرية بدمشق.
١٤- نهاية الأرب في فنون الأدب: أحمد بن عبد الوهاب النويري الجزء الثاني ص ٢٤٢- القاهرة، وزارة الأوقاف والإرشاد القومي.
١٥- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: المجلد الثاني. ألّفه إسماعيل باشا البغدادي – طُبع بالآستانة سنة ١٩٥٥. أعادت طبعه بالأوفسيت المكتبة الإسلامية والجعفري تبريزي بطهران – ١٣٨٧ هـ.
١٦- الوافي بالوفيات: صنّفه صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي باعتناء هلموت ريتر ١٣٨٤ هـ= ١٩٦١م.
١٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد بن خلكان. حققها إحسان عباس – دار الثقافة، بيروت- ١٩٧٠.
١٨- معجم الأدباء: ياقوت – طبعة مرجليوث.